الحديث السابع

الحرص على المال والوجاهة

عن كعب بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ بأفسدَ لها مِنْ حرص المرء على المال، والشَّرف لدينه». رواه أحمد، والتِّرمذيُّ، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وابن حبَّان، والدَّارميُّ[1].

وروىٰ هذا الحديث عن رسول الله ﷺ عددٌ من الصَّحابة غير كعبٍ.

* منهم: ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «ما ذئبان ضاريان في حظيرةٍ يأكلان، ويفسدان بأضرَّ فيها من حبِّ الشَّرف، وحبِّ المال في دين المرء المسلم». رواه البزَّار بإسنادٍ حسن. كذا قال المنذريُّ. لكنَّ التِّرمذيَّ عندما أشار إلى حديث ابن عمر هذا قال: [ولا يصحُّ إسناده][2].

* ومنهم: أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان ضاريان جائعان في زريبة غنمٍ، أغفلها أهلُها، يفترسان، ويأكلان بأسرع فيها فساداً من حبِّ المال، والشَّرف في دين المرء المسلم». قال المنذريُّ: رواه الطَّبرانيُّ، واللفظ له، وأبو يعلىٰ بنحوه، وإسنادهما جيِّد[3].

---

(١) المسند ٣/ ٤٥٦ و٤٦٠ والترمذي ٣/ ٣٧٧ برقم ٢٣٧٦ وموارد الظمآن برقم ٢٤٧٢ والدارمي ٢/ ٣٠٤ وانظر الترغيب والترهيب ٤/ ٤٧.

(٢) رواه البزار، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٠).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٠).

* ومنهم: جابر، ولفظ حديثه ـ كما أورده ابن رجب ـ: «ما ذئبان ضاريان يأتيان في غنمٍ غاب رِعاؤها بأفسد للنَّاس من حبِّ الشَّرف والمال لدين المؤمن».

* ومنهم: ابن عباسٍ.

* ومنهم: أسامة بن زيدٍ.

* ومنهم: أبو سعيدٍ الخدريُّ.

ومنهم: عاصم بن عديٍّ، وحديثه ـ كما أورده ابن رجب[1] ـ: قال عاصم: اشتريتُ مِئة سهمٍ من سهام خيبر، فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فقال: «ما ذئبان ضاريان في غنم؛ أضاعها ربُّها بأفسد من طلب المُسلم المالَ والشرف لدينه». أخرجه الطَّبرانيُّ[2].

هذه الرِّوايات المختلفة لهذا الحديث الصحيح تضع بين أيدينا الصُّورة البيانيَّة الرَّائعة، الَّتي تقرِّر عن طريق التصوير الحقيقة الآتية، وهي: أنَّ الحرص على المال، والحرص على الوجاهة، وحبَّ هذين الأمرين مفسدٌ لدين المرء المسلم إفساداً كبيراً؛ حتَّى لا يكاد يسلم له مِنْ دينه إلا القليل.

وقد ورد في بعض الرِّوايات (الحرص على المال) وفي بعضها الآخر (حبُّ المال) وبينهما فرقٌ دقيقٌ، وإن كانا يدوران حول أمرٍ واحدٍ، هو التَّعلُّق بالمال، وإيثاره، وبينهما تداخلٌ، فكلٌّ منهما يؤدي إلى الآخر.

وليس من شكٍّ في أنَّ رواية (حبِّ المال) تخيف المؤمن أكثر من الرِّواية الأخرى، فهي أشدُّ، وأخطر؛ ذلك لأنَّ الناس جميعاً يحبُّون المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]. ولكن يبدو: أنَّ المراد بحبِّ المال في الحديث الحبُّ الَّذي يؤدِّي

---

(١) شرح حديث «ما ذئبان...» ص ١٦٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٢٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١).

إلى التَّفريط بحقوق الله؛ لأنَّه قد يكون هناك حبٌّ من غير حرصٍ، بل قد يكون معه البذل، غير أنَّ التَّعبير بالحبِّ يوقظ في النَّفس حساسية مرهفةً، وينشىء رقابةً حذِرةً؛ لكي يحذر المسلم من نتائج حبِّ المال، وليكون ما عند الله مقدَّماً لديه على المال... إنَّه لا ينبغي أن يكون المالُ أحبَّ إلى المسلم من الله، ورسوله، والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]... إنَّ الإسلام لا يطلب أن ينتزع الإنسان من ذاته حبَّ المال، ولكنَّه يطلب أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، فلا يفرِّط بسبب حب المال ـ هذا الأمر الغريزي ـ بحقٍّ من حقوق الله، ولا بحكمٍ من أحكام شرعه.

إنَّنا نرىٰ في حياة كثيرٍ من المسلمين ما يفعل الحرصُ على المال، وحبُّه: إنَّ الغشَّ، والاختلاس، والتَّزوير، والاحتيال، وشهادة الزُّور، والسَّرقة، وأكلَ أموال النَّاس بالباطل، والرِّشوة، والرِّبا، وأكلَ مال اليتيم، وقطع الطَّريق، واغتصاب أراضي النَّاس، وبيوتهم... وغير ذلك... كلُّه ناشئٌ من الحرص على المال، وحبِّه.. بل إنَّ كثيراً من جرائم القتل هي نتيجةٌ لهذا الحرص المَقيت... إنَّ تنافس النَّاس في الحصول على الأموال من أيِّ وجهٍ حلَّ، أو حَرُم، وكيد بعضهم لبعضٍ قادهم إلى قسوة القلب، وارتكاب عددٍ من الذُّنوب، كالكذب، والحلف الكاذب، والغيبة، والنَّميمة، وما ذكرنا آنفاً، ولو أنَّ امرأً زار محكمة من المحاكم، ونظر في خصومات الناس؛ لأذهله هذا المستوىٰ؛ الذي انحدر إليه كثيرٌ من النَّاس.

إنَّ المال من زينة الحياة الدُّنيا. قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وإنَّ على المسلم أن يقف من الدُّنيا الموقف السَّديد؛ الَّذي رسم معالمه الإسلام، وأن يضعها في مكانها بحجمها؛ الَّذي حدَّده لها الإسلام، فلا يرفضها بالكلِّيَّة، ولا يجعلها غايته: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[القصص: ٧٧].

* لا يرفض المسلم الدُّنيا ، ولا يعزف عنها عزوفاً كلِّيّاً ؛ لأنَّه لو فعل ذلك ؛ لكان عالة على النَّاس ، يتكفَّف أيديهم ، أعطَوْه ، أو منعُوه.

هناك ضروراتٌ لا بد من توفيرها ، وحاجاتٌ له ، ولأهله لا بدَّ من سدِّها. ولذلك كان الكسب الحلال لتأمين كفايته ، وأهله لوناً من ألوان العبادة.

* ولا يجعل الدُّنيا غايته ؛ الَّتي يعيش لأجلها ، ولا يجعلها أكبر همِّه ، ولا مبلغ علمه ، ولا يُحِلُّها في قلبه. بل يجعلها في يديه ، وعندئذٍ يهون عليه البذل ، والإنفاق ، ويبتعد عن الشُّبهات ، ويقف عند حدود الله.

إنَّ هذا الموقف المتوازن من الدُّنيا يصون المرء عن الهبوط؛ ليكون عبد الدِّرهم ، والدِّينار ، والقطيفة.

عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ ؛ قال:

«تعس عبد الدِّينار ، وعبد الدِّرهم ، وعبد الخميصة ، إنْ أُعطِيَ ؛ رضيَ ، وإن لم يُعْطَ ؛ سخط ، تعس ، وانتكس ، وإذا شيك ؛ فلا انتقش». رواه البخاريُّ ، وابن ماجه[1].

وإنَّ هذا الموقف يحفظ على المرء المسلم كرامته ، وماء وجهه ، ومجانبةُ هذا الموقف ، والبعد عنه يوقع المرء في خللٍ في حياته.

ومن آثار الاختلال في النَّظرة إلى الدُّنيا:

أنَّ السَّواد الأعظم من النَّاس مشغولٌ في الدُّنيا ، لا يفكِّر إلا فيها ، ولا يهمُّه إلاَّ أمْرها.

وقد أدرك الطَّواغيتُ الظَّلمةُ ـ في البلاد التي لا تُحْكَمُ بالإسلام ، أو لا تدين به ـ : أنَّ شَغْلَ النَّاسِ بأمور الدُّنيا ممَّا يُمَكِّن لهم ، فعمدوا إلى تضييق

---

(١) انظر «صحيح البخاريِّ» برقم ٢٨٨٧ ، وابن ماجه ٢/١٣٨٦ برقم ٤١٣٦ ، وانظر مختصر المقاصد الحسنة بتحقيقنا رقم ٣١٣.

سبل العيش على العامَّة ، وأتاحوا لفئةٍ قليلةٍ من محسوبيهم ، وأتباعهم الفرص الواسعة للثَّراء الفاحش ؛ حتَّى عظمت أموالهم ، ونما ثراؤهم ، وزاد تعلُّقهم بالدُّنيا .

أمَّا العامَّة ؛ فقد حلَّت بهم الفاقة ، وهبطت عملةُ بلادهم ، وارتفعت أسعارُ حاجاتهم ، وشحَّت الموادُّ الضَّرورية في ديارهم ، حتَّى عضّهم الجوع والبؤس ، فلا يفكِّر أحدٌ من السَّواد الأعظم منهم إلا في تأمين ضروراته ، وزاد تعلُّقهم بالدنيا .

ولم يعد أحدٌ من هؤلاء يفكِّر في حمل رسالةٍ ، أو الدَّعوة إلى فضيلةٍ .

ومن آثار الاختلال في النَّظر إلى الدُّنيا :

وجود أفرادٍ رضُوا بالكسل ، والقعود عن العمل ، فلم يكسِبوا ، بل انصرفوا إلى العبادة . . . وزعموا : أنَّ هذا زهدٌ!!!

فافتقروا . . . واضطرُّوا إلى العيش على الصَّدقات . . . فأورثهم وضعُهم هذا ذلاً ، وضَعْفاً ، وخُضوعاً ، وخُنوعاً .

إنَّ كلا الموقفين لا يقرُّه الإسلام .

هناك أمران مفسدان للدِّين إفساداً كبيراً ، هُمَا الحرصُ على المال ، والحصولُ عليه بأيِّ وسيلةٍ ، والتَّطلُّع إلى الوجاهة ، والمنصب ، والشَّرف ، كما قرَّر ذلك سيِّدنا رسول الله ﷺ من خلال صورةٍ بيانيةٍ رائعةٍ مُنتزعةٍ من بيئة العرب المخاطَبين .

ولو أنَّنا نظرنا إلى هذين الأمرين ؛ لوجدنا : أنَّهما كليهما من متاع الدُّنيا ، وزينتها ، ولوجدنا : أنَّ أحدهما يُفضي إلى الآخر . فترى المرء يحرص على المال ؛ لأنَّ المالَ سبيلٌ من سبل بلوغ المكانة السَّامية ، والشَّرف الرَّفيع ، وقد قيل :

فَلاَ مَجْـدَ فِي الدُّنيـا لِمَـنْ قـلَّ مَالُـهُ وَلاَ مَـالَ فِي الدُّنيا لِمَنْ قَـلَّ مَجْدُه[1]

---

(١) انظر ديوان المتنبي ٢/١٤٦ تحقيق البرقوقي .

وكذلك تراه يتطلَّع إلى المنصب ، والوجاهة ؛ لأنَّهما يُسهِّلان له طرق كسب المال .

إنَّنا لنرىٰ في حياة النَّاس التَّطاحن على المناصب ، والرِّياسات ، يركب بعضهم من أجل ذلك الصَّعب ، والذَّلول ، ويبذل ماء وجهه ، ويستحلُّ كثيراً من التَّصرفات المحظورة .

إنَّ التَّحذير من الحرص على المال ، والتَّطلُّع إلى الرِّياسات ، الَّذي نواجهه في هذا الحديث البليغ الجميل أمرٌ يحتاج إليه المسلم في كلِّ حينٍ ، وهو في هذا العصر الَّذي طغت فيه المفاهيم المادِّيَّة على القيم الخُلُقِيَّة ، والدِّينيَّة هو في هذا العصر مطلوبٌ تذكُّره ، والتَّذكير به على وجهٍ أشدَّ[1] .

إنَّ التعلُّق بالدُّنيا هو سبب الآفات ؛ الَّتي يشكو منها المسلمون ، والنَّظرة الإسلاميَّة إلى الدُّنيا نظرةٌ متوازنةٌ ، لا تدعو إلى ترك الدُّنيا ، والبطالة . . . ولكنَّها تحذِّر من الحرص الشَّديد ، والتعلُّق التَّامِّ بها ، وشغل القلب ، والفكر في شؤونها .

هذا قطيعٌ من الغنم يرعىٰ في أرضٍ خِصْبةٍ ، ويأوي إلى حظيرةٍ . . غفل عنه رِعاؤه . . . وغاب حارسوه ، وحماته ، فهجم عليه فجأةً ذئبان جائعان ضاريان . . مضىٰ عليهما زمنٌ طويلٌ لم يجدا الطَّعام . . . فعاثا فساداً ، وافتراساً ، وقتلاً لأعدادٍ كثيرةٍ من هذا القطيع .

إنَّ فتك هذين الذِّئبين فتكٌ كبيرٌ ؛ لأنَّهما ضاريان قويَّان جائعان ، ولأنَّهما لم يجدا مقاومةً تصدُّهما عن التَّخريب ، والإفساد ، والفتك .

إنَّ هذا الإفساد ، والفتك تبرزه هذه الصُّورة بوضوحٍ ، وتبيِّن حجمه ، وهي صورة منتزعةٌ من الواقع ؛ الَّذي يعرفه العرب ؛ الَّذين يعتمد بعضهم على

---

(١) هذا وإنِّي لأعجب من كلام بعض الفضلاء الَّذين يحاربون فيه هذا الموقف مع أنَّ الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة تحذِّر من الانصراف إلى الدُّنيا ، والاستكثار منها ، والواقع الملموس يؤيِّد هذا التحذير ! ! !

المرعىٰ في الكسب ، ويعرفون ضراوة الذِّئب ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم.

يستخدم الرَّسول ﷺ هذه الصُّورة ؛ لبيان إفساد الحرص ، وطلب الوجاهة ؛ إفسادهما للدِّين.

إنَّ الحرص ، وطلب الوجاهة ذئبان من نوعٍ آخر ، يفتكان بأعزِّ ما يملك الإنسان ، وهو الدِّين.

والخطورة: أنَّ أثرهما الضَّخم لا يراه من النَّاس إلا قليلٌ ممَّن فتح الله بصيرته ، وعرَّفه الحقَّ. إنَّ كثيراً من النَّاس يتعرَّضون لفتك هذين الذِّئبين ، ولا يدرون.. يمضون لاهين فرحين ، لا يُحِسُّون بأنَّ كارثة تحُلُّ في دينهم... إنَّ هذه الصُّورة تبرز هذا الموضوع الخفيَّ ، وتجسِّد هذا المعنىٰ ، وتُجلِّيه على أتمِّ وجهٍ.

والحرص على المال نوعان:

أحدهما: شدَّة محبَّة المال مع شدَّة طلبه من وجوهه المباحة ، والمبالغة في طلبه ، والجدُّ في تحصيله ، واكتسابه من وجهه مع الجُهْد ، والمشقَّة.

إنَّ من أخطر الأمور في حياة الفرد ، والأمَّة أن تنقلب الوسيلة إلى غايةٍ... إنَّ هذا يؤدِّي إلى اختلالٍ في النَّظرة والتَّصرُّف ، فالمال وسيلةٌ يحصُل الإنسان عليها لتأمين ضرورياته ، وحاجاته ، وتكميليَّاته[1] من غذاءٍ ، ودواءٍ ، وسكنىٰ ، ولباسٍ ، وزواجٍ ، وتثقيف فكره ، وتنوير ذهنه ، واستمتاعٍ بالمُتَع الَّتي أحلَّها الله.

ولتحقيق رسالةٍ ساميةٍ هي ـ بالنِّسبة للمسلم ـ الدَّعوة إلى الله ، ونشر دينه ، وإعلاء كلمته.

فإذا تحوَّلت هذه الوسيلة إلى غايةٍ لا تستخدم لغيرها ، بل يحيا المرء لتحقيقها ، كان الشَّقاء ، والبؤس ، وتحوَّلت الحياة إلى جحيمٍ.

---

(١) انظر تعريفاً للضَّروريات ، والحاجات ، والتَّكميليَّات في كتاب «المدخل الفقهي العام» للشيخ مصطفىٰ الزرقا ١/ ٩٣ ـ ٩٥ ، وفي الطبعة الجديدة ١/ ١٠٢.

فحبُّ المال غريزةٌ في الإنسان يجب على المسلم أن يوظِّفها في خدمة عقيدته ، وفي مصلحته الكبرىٰ الَّتي تتمثَّل في النَّجاة من سخط الله، وعذابه ، والفوز برضوانه ، وجنَّته.

إنَّ رأس مال المسلم عمره. . . فهل يليق بالعاقل أن يضيِّع رأس المال هذا في جمع المال ، وتكديسه ، ولو كان من وجوهٍ مباحةٍ؟ أليس الأجدر به أن يكسب من المال ما يؤمِّن به ضروراته ، ثمَّ ينصرف بعد ذلك إلى العمل الصَّالح الباقي الَّذي يكسبه الدَّرجات العلىٰ ، والنَّعيم المقيم؟

إنَّ الرزق مقسومٌ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣] وإنَّ أهل الأرض لا يستطيعون أن يمنعوا رجلاً من رزقٍ كتبه الله له ، ولن يموت مخلوقٌ حتى يستكمل رزقَه ، ولا يأتي المرءَ إلاّ ما قُدِّرَ له. فعلىٰ المرء أن يسعىٰ ، ويُحسن التَّخطيط لسعيه ، ويكسب ما يسدُّ حاجته ، ويفي بمتطلَّباته ، وينفق بلا إسرافٍ ، ولا تقتير. . . ثمَّ يغتنم عمره في سلوك سبيل النَّجاة بالقيام بالواجبات ، والمندوبات ، والاستكثار من الطَّاعات ، والقربات.

إنَّ الحرص على المال ، والسَّعي لتحصيله ، والإفراط في ذلك يفوِّت على العبد فُرَص الخير ، وقد يهبط به إلى مستوىً دون مستوىٰ الحيوان ؛ الَّذي يكتفي إذا أخذ حاجته. . . أمَّا الحريص فإنَّه يجمع ما يفوق حاجته ، ويشقىٰ في تحصيله وفي تحمُّل مسؤوليته يوم القيامة.

قيل لبعض الحكماء: إنَّ فلاناً جمع مالاً. قال: فهل جمع أياماً ينفقه فيها؟ قيل: لا. قال: ما جمع شيئاً.

إنَّ الحريص محرومٌ؛ إذ حمله حرصه على الجمع ، والارتحال ، والسَّهر ، فحُرِم من الخير.

وقد قيل: يا بن آدم! إذا أفنيت عمرك في طلب الدُّنيا ؛ فمتىٰ تطلب الآخرة؟

وقال بعضهم:

إِذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الخَيْرِ عَاجِزاً فَمَا أَنْتَ فِي يوم القِيَامَة صَانِعُ؟

قال ابن مسعود: اليقينُ ألا تُرضي النَّاس بسخط الله ، ولا تحمدَ أحداً علىٰ رزق الله ، ولا تلومَ أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإنَّ الرِّزق لا يسوقه حرصُ حريصٍ ، ولا يردُّه كراهة كارهٍ. إنَّ الله بقسطه جعل الرَّوْح ، والفرح في اليقين والرِّضا ، وجعل الهمَّ ، والحزن في الشَّكِّ ، والسُّخْطِ.

وقال بعض السَّلف:

إذا كان القَدَرُ حقّاً ؛ فالحِرْصُ باطلٌ.

وإذا كان الغَدْرُ في النَّاس طبعاً ؛ فالثِّقة بكلِّ أحد عجزٌ.

وإذا كان الموت لكلِّ أحدٍ راصداً ؛ فالطُّمأنينة إلى الدُّنيا حُمْقٌ[1].

إنَّ الحريص على المال مشغولٌ في اللَّيل ، والنَّهار ، دائم التَّفكير في وسائل تنمية أمواله ، والحفاظ عليها... اتِّصالاته متعدِّدةٌ ، فهو يستعمل الهاتف مبتدئاً ومجيباً ، ويرسل البرقيَّات ، والتِّلِكْسات ، ويستقبلها ، ويبعث بالرَّسائل ، ويجيب على ما يصل إليه منها ، ويناقش العُروض ، والمناقصات ، ويراجع الحسابات ، ويحاور كتّابه في تفاصيلها ، ويطيل النَّظر فيها.. وهو قلقٌ على أمواله ، وبضائعه ، وعقاراته ، لا يكاد يقرُّ له قرار ، ولا تهدأ نفسه على حالٍ ، يخاف تقلُّبات الأيام ، ويخشىٰ الكوارث من حريقٍ ، ونحوه ، فيلجأ إلى شركات التَّأمين.

يَفْرَقُ من أن يخونه أعوانُه ، أو يسرقَه موظَّفوه ، وغيرُهم. يسأل دائماً عن الأسعار ، ويسوءُه كثيرٌ من الأخبار ؛ لما يتوقع من انعكاساتها على الأوضاع الاقتصاديَّة ، وقد يبالغ خياله في تلك التوقُّعات...

وأحسَب أنْ قد أُتيح لك أيُّها الأخ الكريم أن ترىٰ على شاشة التِّلفزيون بعض رجال البورصة ،وهم يتابعون تبدُّل الأسعار ، ويشاركون في عمليَّات البيع ،والشِّراء على الهواتف المتعدِّدة ؛ الَّتي أمام كلِّ واحدٍ منهم... وقد تتمُّ الصَّفقات مواجهة ،ومباشرةً... وأحسب أنَّك رأيت في ذلك منظراً عجيباً..

---

(١) شرح حديث: «ما ذئبان...» لابن رجب ص ١٦٩.

وحركاتٍ أشبه ما تكون بحركات مَنْ بِهِ مسٌّ من الجنِّ ، وصخباً ، وضجيجاً ، وأصواتاً تشبه أصوات المجانين الهائجين المائجين.

إنَّ هذه الصُّورة المرئيَّة تعرض حال كثيرٍ من هؤلاء ؛ الَّذين سيطر الحرصُ على قلوبهم ، وعقولهم بشكلٍ مكبِّرٍ!!

وأحسَب : أنَّك سمعت بأنباء بعض الأثرياء الَّذين أصيب بعضهم بانهيارٍ عصبيٍّ ، وبعضُهم الآخر بأزمةٍ قلبيَّةٍ أودت بحياتهم ؛ نتيجة لهبوط عملةٍ ، أو إفلاس بنك كانوا يودعون فيه أموالهم ، وما إلى ذلك.. وقد يُقدِم بعضهم على الانتحار[1]!!

إنَّ الحريص على المال لا يجد الوقت الَّذي يرعىٰ فيه أولاده ، ويتفقَّد أحوالهم... بل إنَّه لا يجد الوقت الَّذي يلتفت فيه إلى نفسه ، وصحَّته ، ودينه. فلا هو في أمور الدُّنيا سعيدٌ مطمئنٌّ مسرورٌ ، ولا هو مقبلٌ على ما ينفعه في آخرته ؛ ليكون من النَّاجين الفائزين... إنَّه سادرٌ في غفلته ، قد زيَّن له الشَّيطانُ عملَه ، فصدَّه عن السَّبيل ، فهو لا يهتدي... شغَل نفسه فيما يزول ، ويفنىٰ ، وغفَل عمَّا يدوم ، ويبقىٰ. وقد قيل:

إنَّ الحَـرِيْـصَ لَمَشْغُـولٌ بِثَـرْوَتِـهِ ... عَنِ السُّرورِ بِمَا يَحْوِي مِنَ المَالِ

وقال آخر:

جَمَعْتَ مَالاً ، فَفَكِّرْ: هَلْ جَمَعْتَ لَهُ ... ـ يَـا جَـامِـعَ المَـالِ ـ أيَّـامَـاً تُفَـرِّقُـهُ

المَـالُ عِنْـدَكَ مَخْـزُونٌ لِـوَارِثِـهِ ... مَـا المَـالُ مَـالُـكَ إلا يَـوْمَ تُنْفِقُـهُ

وكتب بعض الحكماء إلى أخٍ له كان حريصاًعلى الدُّنيا:

(أمَّا بعد : فإنك أصبحت حريصاً على الدُّنيا تخدُمها ، وهي تخرجُكَ عن نفسها بالأعراض ، والأمراض ، والآفات ، والعلل ، كأنَّك لم تر حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً ، ولا ميِّتاً عن كثيرٍ ، ولا متبلِّغاً من الدُّنيا باليسير).

---

(١) حصلت بعض هذه الحوادث في عمَّان في سنة ١٤٠٨ هـ ، وذكرت الصُّحف هناك أنباء عددٍ من هؤلاء. وكذلك فقد حصل مثل هذا وأكثر منه في الولايات المتحدة ؛ نتيجة تدهور أسعار السَّندات ، والأسهم ، وقد أطلق بعضهم على يوم تلك الأزمة : «يوم الإثنين الأسود».

إنَّ الحرص على الدُّنيا يذلُّ أعناق الرِّجال ، ولله درُّ أبي العتاهية ؛ الَّذي يقول:

تَعَالَىٰ اللهُ يَا سَلْمَ بنَ عَمْرٍو أذلَّ الحِرْصُ أعْنَاقَ الرِّجَالِ

فقد يرضىٰ هذا الحريص بالإهانة ، والمذلَّة؛ لأنَّه يخشىٰ إذا كان منه إباءٌ ، أو أنفةٌ أن يُعرِّض مصالحه إلى ضياعٍ ، وتجارتَه إلى كسادٍ ، وأموالَه إلى نقصٍ ، وقد قيل:

الحِرْصُ دَاءٌ قَدْ أَضَرَّ بِمَنْ تَرَىٰ إلا قَلِيلا
كَمْ مِنْ حَرِيصٍ طَامِعٍ والحِرْصُ صَيَّرَهُ ذَلِيلا

هذا وقد يكون الحريص محروماً. . أدبرت عنه الدُّنيا على سعيه الدَّائب وراءها ، فكان ذلك سبباً لأن يمتلئ حِقْداً على الآخرين ، تُمزِّقه العُقَدُ النَّفسيَّة ، وتَحرِق صدرَه الحَسَراتُ والزَّفرات.

النَّوع الثَّاني من الحرص على المال: أن يحرص عليه حرصاً يحمله على طلب المال من الوجوه المُحرَّمة ـ والعياذ بالله ـ يحمله على الامتناع عن أداء الحقوق الواجبة حتَّى يبلغ به منزلة الشُّحِّ؛ الَّذي يُهلك الأفراد، والأُسَر، والأمم.

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«اتَّقوا الظُّلم ؛ فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتَّقوا الشُّحَّ ، فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كان قبلكم، حَمَلهم على أن سَفَكُوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم». رواه مسلمٌ ، وأحمد ، والبخاريُّ في الأدب المفرد[1].

وعن عبد الله بن عمرٍو ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«إيَّاكم والشُّحَّ ، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالشُّحِّ ، أمرَهم بالبُخل ، فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة ، فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ، ففجروا». رواه أبو داود في باب الشُّحِّ من كتاب الزَّكاة[2].

---

(١) مسلمٌ برقم ٢٥٧٨ ، والمسند ٣/ ٣٢٣ ، والأدب المفرد ٧٠.
(٢) أبو داود برقم ١٦٩٨.

ما أبشع أن تتشوَّف النَّفس إلى ما حرّم الله! وما أقبح ألا يقنع العبد بما أحلَّه الله له من مالٍ، أو متاع! إنَّ رحمة الله بعباده واسعةٌ... ومن هذه الرَّحمة الرَّحيمة: أنَّه سبحانه أحلَّ لهم الطَّيبات من المطاعم، والمشارب، والملابس، والمناكح في مقابل ما حرَّم عليهم من الخبائث ممَّا ذكرنا.

فَمَنْ تعدَّى حدود الله؛ فقد ظلم نفسه، وما زاد في إمتاع نفسه بشيءٍ جديد.

إنَّ الشُّحَّ ـ الَّذي أشار إليه الحديث ـ من الظُّلم، ومن هنا قُرِنَ في حديث جابرٍ به: «اتَّقوا الظُّلم؛ فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ...» وكيف لا يكون ظلماً؛ وهو يدمِّر حياة الفرد، والأسرة، ويقوّض سعادة المجتمع والأمَّة، ويأمر بالقطيعة؛ والفجور، وسفك الدِّماء، واستحلال المحارم؟

إنَّ المؤمن الصَّادق لا يقع في الحرام من أجل تحصيل المال... فإنْ حدَّثته النَّفس الأمَّارة بالسُّوء؛ زجرها بتذكيرها بما أعدَّ الله للعصاة من العذاب الأليم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

... وإن زيَّنت له نفسه الهوىٰ؛ نهاها عنه، وذكَّرها بما أعدّ الله لمن يتغلَّب على هواه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

... وإن وسوس إليه الشَّيطان بارتكاب ما حرَّم الله؛ استعاذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١].

الحرص على المكانة:

إنَّ حرص المرء على المكانة، والمنصب، والشَّرف أشدُّ إهلاكاً لصاحبه من الحرص على المال، نعم؛ إنَّ ضرر طلب الرِّياسة علىٰ النَّاس، وابتغاء

شرف الدُّنيا ، ورفعتها أعظم من ضرر طلب المال ؛ لأنَّ نتائجه الوخيمة أكبرُ. والزُّهد فيها أصعبُ. قال سفيان الثَّوريُّ: (احذر المنزلة ، وحبَّها ، فإنَّ الزُّهد فيها أشدُّ من الزُّهد في الدُّنيا)[1].

وقد يُطلب الشَّرف ، والمكانة بالمناصب ؛ الَّتي فيها السُّلطان ، والاستعلاء ، وهذا طلبٌ مذمومٌ شرعاً؛ لأنَّ طالب الولاية لا يولَّى ، وقلَّ أن يحرص امرؤٌ على رياسة الدُّنيا ، ثمَّ يُوَفَّق ، بل يُوكَلُ إلى نفسه ، كما قال النَّبيُّ ﷺ لعبد الرَّحمن بن سَمُرة:

«يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة: فإنَّك إنْ أُعطيتها عن غير مسألةٍ ؛ أُعِنْتَ عليها ، وإن أُعطيتها عن مسألةٍ ؛ وُكلتَ إليها. وإذا حلفت على يمينٍ ، فرأيت غيرها خيراً منها ؛ فائْتِ الَّذي هو خيرٌ ، وكفِّر عن يمينك»[2].

وعن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«إنَّكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامةً يوم القيامة ، فنعم المُرضعة ، وبئست الفاطمةُ»[3].

وجاء في «الفتح»: [قال الدَّاودي: نعم المرضعة ؛ أي: في الدنيا. وبئست الفاطمة ؛ أي: بعد الموت ، لأنَّه يصير إلى المحاسبة على ذلك ، فهو كالَّذي يُفطم قبل أن يستغني ، فيكون في ذلك هلاكُه.

وقال غيره: نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه ، والمال ، ونفاذ الكلمة ، وتحصيل اللَّذات الحسِّيَّة ، والوهميَّة حال حصولها. وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموتٍ ، أو غيره ، وما يترتَّب عليها من التَّبعات في الآخرة].

---

(١) الجرح والتَّعديل ١/ ٨٧.

(٢) رواه البخاريُّ برقم ٦٦٢٢ ، ومسلمٌ برقم ١٦٥٢ ، والتِّرمذيُّ برقم ١٥٢٩ وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ برقم ١٢٣٥ ، وأبو داود برقم ٢٩٢٩ ، والنَّسائيُّ ٨/ ٢٢٥ ولم يذكرا إلَّا الجزء الأوَّل ، وأحمد (٥/ ٦٢).

(٣) رواه البخاريُّ برقم ٧١٤٨ ، والنسائي ٨/ ٢٢٥ ، وأحمد ٢/ ٤٤٨.

أقول: وهي صورةٌ بيانيَّةٌ رائعةٌ تقفنا على معانٍ كثيرةٍ: كم يكون تعلُّق الرَّضيع بالمُرضعة؟ وكم تكون لذَّته عندما يتناول الثَّدي؟ وكم يكون ألمه، وغمُّهُ عندما يفطم، ويحال بينه، وبين بُغيته؟ إنَّ هذا كلَّه في الإمارة... فليحذر العبد أشدَّ الحَذَر.

ويوضِّح ذلك ما أخرج البزَّار، والطَّبرانيُّ بسندٍ صحيحٍ عن عوف بن مالكٍ بلفظ: «أوَّلُها ملامةٌ، وثانيها ندامةٌ، وثالثها عذابٌ يوم القيامة، إلا مَنْ عَدَلَ».

وفي الأوسط للطَّبرانيِّ من رواية شريك بن عبد الله بن عيسى، عن أبـي صالـحٍ عن أبي هريرة ـ قال شريك: لا أدري رَفَعَهُ، أم لا ـ قال: «الإمارة أوَّلها ندامةٌ، وأوسطها غرامةٌ، وآخرها عذابٌ يوم القيامة»[1].

.. وعند الطَّبرانيِّ من حديث زيد بن ثابتٍ رفعه:

«نعم الشَّيء الإمارة لمن أخذها بحقِّها، وحِلِّها، وبئس الشَّيء الإمارة لمن أخذها بغير حقِّها، تكون عليه حسرةً يوم القيامة»[2].

وأخرج مسلمٌ عن أبي ذرٍّ، قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ فضرب بيده على مَنْكِبي، ثمَّ قال: «يا أبا ذر! إنَّك ضعيفٌ، وإنَّها أمانةٌ، وإنَّها يوم القيامة خزيٌ، وندامةٌ، إلاّ مَنْ أخذها بحقِّها، وأدَّى الَّذي عليه فيها»[3].

وأخرجه مسلمٌ عن أبي ذرٍّ أيضاً، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر! إنِّي أراك ضعيفاً، وإنِّي أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمَّرنَّ على اثنين، ولا تولَّينَّ على مال يتيمٍ»[4].

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٠١: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات.
(٢) الفتح ١٣/ ١٢٦، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٠.
(٣) مسلمٌ برقم ١٨٢٥.
(٤) مسلمٌ برقم ١٨٢٦.

قال النَّوويُّ: [هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، ولا سيَّما لمن كان فيه ضعفٌ عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأمَّا الخزي، والنَّدامة؛ فهو في حقِّ من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً لها، ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة، ويفضحه، ويندم على ما فرط. وأمَّا من كان أهلاً للولاية، وعدل فيها، فله فضلٌ عظيم، تظاهرت به الأحاديث الصَّحيحة كحديث «سبعة يظلُّهم الله. . . .» والحديث. . . «إنَّ المقسطين على منابر من نورٍ. . .» وغير ذلك. وإجماع المسلمين منعقدٌ عليه، ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذَّره ﷺ منها، وكذا حذَّر العلماء، وامتنع منها خلائقُ من السلف، وصبروا على الأذى حين امتنعوا][1].

وروىٰ البخاريُّ، ومسلمٌ في صحيحيهما[2] عن أبي موسىٰ الأشعري، قال:

دخلتُ على النَّبيِّ ﷺ أنا، ورجلان من قومي، فقال أحد الرَّجلين: أمِّرنا يا رسول الله! وقال الآخر مثله. فقال ﷺ: «إنَّا لا نولِّي هذا مَنْ سأله، ولا من حرَص عليه». هذا لفظ البخاريِّ. ولفظ مسلمٍ: «إنَّا والله! لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرَص عليه». وجاء في «الفتح»:

[إنَّ الذي ناله المتولِّي من النَّعماء، والسَّرَّاء دون ما يناله من البأساء والضَّرَّاء؛ إمَّا بالعزل في الدُّنيا فيصير خاملاً، وإمَّا بالمؤاخذة في الآخرة، وذلك أشدُّ. . . قال القاضي البيضاويُّ: فلا ينبغي لعاقل أن يفرح بلذةٍ تعقُبها حسراتٌ. قال المهلَّب: الحرص على الولاية هو السَّبب في اقتتال النَّاس عليها، حتَّى سفكت الدِّماء، واستبيحت الأموال، والفروج، وعظم الفساد في الأرض بذلك.

ووجه النَّدم: أنَّه قد يُقتل، أو يُعزل، أو يموت، فيندم على الدُّخول

---

(١) شرح النووي ١٢/ ٢١٠.

(٢) البخاريُّ برقم ٧١٤٩، وانظر «الفتح» ١٣/ ١٢٥، ومسلمٌ برقم ١٧٣٣، وانظر شرح مسلمٍ للنَّوويِّ ١٢/ ٢٠٧.

فيها؛ لأنّه يُطالب بالتَّبعات ؛ الَّتي ارتكبها ، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته . قال: ويستثنىٰ من ذلك مَنْ تعيَّن عليه][1].

ولقد رأينا في واقعنا المعاصر مآسيَ مؤلمةً ، أوقعها في الأمَّة حرص بعض النَّاس على الزَّعامة ، والقيادة ، وتنافسهم في ذلك ، فأُزهقت أرواحٌ ، وأُهرقت دماءٌ ، وخُرِّبت بيوتٌ . . وأُهدرت كراماتٌ .

ويحصل هذا على مستوياتٍ متفاوتةٍ بدءاً من الولاية الكبرىٰ إلى الوزارة ، ثمَّ النِّيابة ، ثمَّ الإدارة .

ولو التزم النَّاسُ هَدْيَ الإسلام ؛ لما كان شيءٌ من ذلك . ولكن الغزو الأجنبيَّ أحلَّ ببلادنا كثيراً من نُظُمِهِ . . فأخذناها دون تفكيرٍ ، ولا نظرٍ .

إنَّه لا تكاد تمرُّ مناسبةٌ فيها منافسةٌ على المناصب في بلدٍ من بلاد الدُّنيا ، حتَّى يقع فيه عددٌ من القتلىٰ غالباً ، وتقوم العداوات ، وتنقطع الأواصر .

إنَّ المنصب ـ في نظر الإسلام ـ مسؤوليَّةٌ عظيمةٌ ، مَنْ قصَّر في أدائها ؛ خاب ، وخسر ، ومَنْ قام بحقِّها ؛ فاز ، ونجا ، فلا ينبغي أن يقبل بها مَنْ عرف في نفسه ضعفاً ، أو عجزاً ، والمنصب أمانةٌ ، وتكليفٌ ، وخدمةٌ للمسلمين ، وسهرٌ على مصالحهم ، ونصحٌ لهم .

إنَّ صاحب المنصب مكلَّفٌ بتنفيذ أمر الله ، وإقامة شرعه ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] .

إنَّ صاحب المنزلة ـ في المجتمع الإسلاميِّ ـ مكلَّفٌ بدعوة النَّاس إلى عبادة الله وحدَه ، وطاعته بالوسائل المُجدية الجذَّابة المدروسة ، ولا يريد منهم جزاءً ، ولا شُكوراً ، بل يرجو ثواب عمله من الله ، والأنبياء ، والرُّسل جميعاً كانوا يَدْعون إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له . ويقول قائلهم: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ

---

(١) (الفتح) ١٣/١٢٦ .

أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [هود: ٥١].

ويأبَوْن أن يكون لهم شيءٌ من صفات الألوهيَّة أو أن تكون لهم منافع ماديَّةٌ أو معنويَّة. قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، والعلماء الَّذين هم ورثة الأنبياء جديرون أن يكونوا مقتدين بهؤلاء الرُّسل الكرام في ذلك.

إنَّ الرَّجل الصَّالح عندما يتولَّى منصباً يَشْرُف المنصبُ به، وعندما يقوم بعملٍ فيه خدمةٌ لعباد الله، وإحسانٌ إليهم يرىٰ: أنَّ الفضلَ لله إذ أجرىٰ الخيرَ على يديه، ولذا فهو لا يحبُّ أن يُمدحَ مِنْ قِبَل الَّذين تلقَّوا الإحسانَ منه، بل يرىٰ أنَّ عليه أن يَحْمَد اللهَ أن وفَّقه إلى هذا الخير، ويثني عليه بما يستطيعُ من الثَّناء.

كتب عمر بن عبد العزيز مرَّةً إلى أهل الموسم كتاباً يقرأ عليهم، وفيه يأمر ولاته بأن يُحسنوا إلى الناس، ويُزيلوا المظالم الَّتي كانت عليهم، ثمَّ خاطب الناس قائلاً: «ولا تحمدوا على ذلك كلِّه إلا الله، فإنَّه لو وَكَلَنِي إلى نفسي؛ كنتُ كغيري»[1].

* * *

وقد يطلب بعضُهم المنزلة الشَّريفة، والمكانة السَّامية، والزَّعامة، والرِّياسة بالأمور الدِّينيَّة، وإظهار الزُّهد، والعمل الصالح، والعلم الشَّرعيِّ.

قال ابن رجب: [فهذا أفحش من الأوَّل، وأشدُّ فساداً، وخطراً، فإنَّ العلم، والعمل، والزُّهد إنَّما يطلب بها ما عند الله من الدَّرجات العُلى، والنَّعيم المقيم، ويُطلب بها ما عند الله، والقُرب منه، والزُّلفىٰ لديه][2].

وهذا الأسلوب الحقير ـ وهو استخدام الدِّين، واستغلاله لبلوغ المنزلة الشَّريفة السَّامية ـ نستطيع أن نتبيَّن فيه نوعين:

١ ـ فقد يطلب بهذه الأمور الدِّينيَّة المنزلة السَّامية الشَّريفة؛ ليحصل على المال.

---

(١) شرح حديث «ما ذئبان...» لابن رجب.

(٢) شرح حديث «ما ذئبان...» لابن رجب.

٢ ـ وقد يطلب بهذه الأمور الدِّينيَّة المنزلة السَّامية الشَّريفة ؛ ليحصل على الرِّياسة التي تُمكِّنه من التعاظم على الخلق.

وكلاهما مذمومٌ في نظر الشَّرع ، مُزدرىً هو وصاحبه عند أهل التَّحقيق من العارفين.

١ ـ إنَّ للحصول على المال طرقاً مشروعةً ، والجدير بالمسلم أن يقيم توازناً في حياته ، فيؤتي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ، ولا ينصرف انصرافاً كلِّيّاً لتحصيل المال حتَّى يُفَرِّطَ في حقِّ نفسه ، وآخرته ، وفي حقِّ أهله ، وأولاده ، ولو كان طلبه المال من طريقٍ مشروعٍ.

أمَّا أن يتَّخذ الدِّين سُلَّماً ، ومطيَّةً يبلغ بها المنزلة الشَّريفة ، الَّتي تُسهِّل له الحصول على المال فهذا خداعٌ ، وخسَّةٌ.

إنَّ استغلال الدِّين ، واتِّخاذه وسيلةً لكسب المال من أخلاق الدَّجالين من أهل الكتاب الَّذين حكى ربُّنا عزَّ وجلَّ حالهم ، فقال:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

وجاء في الحديث الصَّحيح: أنَّ الَّذي يستغلُّ العلم الشَّرعيَّ لمصالحه الدُّنيويَّة ، ولا يتعلَّمه إلاَّ ليصيب به عَرَضاً من أعراض الدُّنيا لا يدخل الجنَّة:

عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ ، قال:

«مَنْ تعلَّمَ علماً مِمَّا يُبتغى به وجهُ الله ، لا يتعلَّمهُ إلا ليصيب به عَرَضاً من الدُّنيا؛ لم يجدْ عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[1] وعَرْفُ الجنَّة: ريحُها. وهو حديثٌ صحيحٌ.

---

(١) رواه أحمد ٢/٣٣٨ ، وأبو داود برقم ٣٦٦٤ ، وابن ماجه برقم ٢٥٢ ، وابن حبَّان ، وانظر موارد الظمآن برقم ٨٩.

قال ابن رجب[1]:

[ولهذا كان أشدّ الناس عذاباً في الآخرة عالمٌ لم ينفعْهُ اللهُ بعلمه ، وهو أشدُّ النَّاس حَسْرةً يوم القيامة ، حيث كان معه آلةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى أعلىٰ الدَّرجات ، وأرفع المقامات ، فلم يستعملها إلاَّ في التَّوصُّل إلى أخسِّ الأمور ، وأدناها وأحقرها ، فهو كمن كان معه جواهر نفيسةٌ لها قيمةٌ ، فباعها ببعرةٍ ، أو شيءٍ مستقذرٍ ، لا يُنتفع به ، فهذا حال مَنْ يطلب الدُّنيا بعلمه.

وأقبحُ من ذلك مَنْ يطلبُها بإظهار الزُّهد فيها ، فإنَّ ذلك خداعٌ قبيحٌ جدًّا].

وإنَّنا لنرىٰ في حياتنا الواقعيَّة ناساً من هذا القبيل... تعلَّم أحدُهم العلم الشَّرعيَّ حتى عُرِف في مجتمعه بأنَّه عالم ، وقد يكون بلغ منزلةً جيِّدةً في معرفة مسائل الفقه ، وتفسير الآيات ، والأحاديث ، ولكنَّه من أجل الحصول على المال يقول باطلاً ؛ ليؤيِّد ذا مالٍ ، أو سلطةٍ ، أو جاهٍ!!

وقد يكون المال الَّذي باع به كرامته ، ودينه ، وأمانة العلم الَّذي تعلَّمه... قد يكون ذلك المال زهيداً... قد يكون دراهم معدودةً... وقد يكون ضيافةً في فندقٍ... أو إركاباً في طائرةٍ... أو ما إلى ذلك.

إنَّه مسكينٌ حقًّا...

أقبل ربيعةُ ذات يومٍ على الإمام مالكٍ ، فقال:

ـ مَنِ السَّفَلَةُ؟

قال مالكٌ: الذي يأكل بدينه. (أي: يبيع دينه ؛ ليأكل ، فيُفتي بالباطل ، ويؤيِّد الفاسدين الفاسقين مقابل مصلحةٍ ، أو منفعةٍ).

ـ قال ربيعة: فَمَنْ سَفَلَةُ السَّفلة؟

ـ قالَ مالكٌ: الَّذي يأكل غيرُه بدينه[2].

---

(١) رسالة ابن رجب ١/ ١٧٥ وهي منشورةٌ في هامش جامع بيان فضل العلم لابن عبد البرِّ. من ١٦٧ ـ ١٨٣ ومنشورةٌ أيضاً في مجموعة الرَّسائل المنيرية ج٣/ ١ ـ ١٧.

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ١/ ١٢٩.

٢ ـ أمَّا النَّوع الثَّاني من الحرص على المنزلة السَّامية الشَّريفة ، وطلبها بالأمور الدِّينيَّة فهو الحصول على تلك المنزلة ؛ ليصبح زعيماً مسموع الكلمة ، رئيساً يسود النَّاس ، ويقودهم ، فإذا بلغ مرادَه ؛ ارتفع في نفسه ، وتعاظم عليهم ، فيهلَك .

العلـــم :

ومن الأمور الدِّينيَّة الَّتي تتخذ سُلَّماً للوصول إلى المنزلة السَّامية الشَّريفة العلم الشَّرعيُّ ، والعلمُ هو الدِّين كما يقول الإمام مالك : (إنَّ هذا العلم دينٌ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم)[١] .

والأصل في تعلُّم العلم الشَّرعيِّ أن يتعلَّمه المرء للعمل به ، ولتعليمه النَّاس ؛ ليستقيموا على نهج الله ، لا يريد من ذلك إلا ثواب الله . وقد جاءت الأحاديث الكثيرةُ تحذِّر من الانحراف عن هذا المستوىٰ الرَّفيع الكريم . وللشَّيطان مداخل خطيرةٌ في هذا الموضوع . فقد يتعلم بعض النَّاس العلم ؛ ليصرف وجوه النَّاس إليه ، وإذا أحرز تقدُّماً في ذلك تكبَّر على النَّاس ، واستصغرهم ، وأظهر : أنَّه يعلم ما لا يعلمه كثيرٌ من العلماء ، يريد بذلك أن يكون مقدَّماً عند الخلق ، وأن يجلَّ في أعينهم ، وهذا أمرٌ منكرٌ مذمومٌ . قال ابن رجب :

[لأنَّ قصد التَّكبُّر على الخلق محرَّمٌ في نفسه ، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة ؛ كان أقبح ، وأفحش من أن يستعمل فيه آلاتِ الدُّنيا من المال ، والسُّلطان] .

* وعن ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ قال :

«مَنْ طلب العلم ليماريَ به السُّفهاء ، أو ليباهيَ به العلماء ، أو ليصرفَ وجوه النَّاس إليه ؛ فهو في النَّار» . وهو حديثٌ حسنٌ ، رواه ابن ماجه[٢] .

* ورواه أيضاً عن حذيفة بلفظ : «لا تعلَّموا العلم ؛ لتباهوا به العلماء ، أو

---

(١) التمهيد لابن عبد البرِّ ١/ ٦٧ وانظر كتابنا : الحديث النَّبويّ ١٩٣ .

(٢) ابن ماجه برقم ٢٥٣ .

لتماروا به السُّفهاء ، أو لتصرفوا وجوه النَّاس إليكم. فمن فعل ذلك ؛ فهو في النَّار». رواه ابن ماجه[1].

* وعن كعب بن مالكٍ ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ طلب العلم ؛ ليجاريَ به العلماء ، أو ليماريَ به السُّفهاء ، ويصرف به وجوه النَّاس إليه ؛ أدخله الله النَّار». وهو حديثٌ حسنٌ ، أخرجه أحمد في مسنده ، والتِّرمذيُّ في باب: مَنْ يطلب بعلمه الدُّنيا[2].

* وعن جابرٍ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال:

«لا تعلَّموا العلم ؛ لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السُّفهاء ، ولا تخيَّروا[2] به المجالس ، فمن فعل ذلك ؛ فالنَّار ، النَّار!» وهو حديثٌ صحيحٌ رواه ابن ماجه ، وابن حبَّان[3].

* وثبت في «صحيح مسلمٍ» عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ:

«إنَّ أوَّل النَّاس يُقضى عليه يوم القيامة رجلٌ... ورجلٌ تعلَّم العلم ، وعلَّمه ، وقرأ القرآن ، فأُتي به ، فعرَّفه نعمه ، فعرفها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت! ولكنَّك تعلّمت العلم ؛ ليقال: عالمٌ ، وقرأت القرآن ؛ ليقال: قارئٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمِر به ، فسُحِبَ على وجهه حتَّى أُلقي في النَّار... ورجلٌ...»[4].

* وعن ابن مسعودٍ ، قال:

---

(١) ابن ماجه برقم ٢٥٩.

(٢) صحيح التِّرمذي للألبانيِّ برقم ٢١٣٨ ، وابن أبي الدنيا في: الصمت (١/٤١) والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧٢) والحاكم (١/ ٨٥).

(٣) كذا جاء في سنن ابن ماجه برقم ٢٥٤ ، وقال المحقِّق محمَّد فؤاد عبد الباقي: [أي: لا تختاروا به خيار المجالس ، وصدورها] وجاء في صحيح ابن حبَّان برقم ٩٠: «ولا تجيزوا» وقال المحقِّق محمد عبد الرزاق حمزة: [كذا. وفي «النهاية»: أجاز الأمر يجيزه: إذا أمضاه ، وجعله جائزاً].

(٤) صحيح مسلمٍ ٦/٤٧ برقم ١٩٠٥ وانظر تتمَّة الحديث هناك ، والرَّجلان هما الكريم ، والشَّهيد. وقد تقدَّم هذا الحديث في هذا الكتاب.

(لا تعلَّموا العلم لثلاثٍ: لتماروا به السُّفهاء ، أو لتجادلوا به الفقهاء ، أو لتصرفوا به وجوه النَّاس إليكم ، وابتغوا بقولكم ، وفعلكم ما عند الله ، فإنَّه يبقى ، ويفنى ما سواه)[1].

* وعن عليٍّ ، قال:

(يا حملةَ العلم! اعملوا به ، فإنَّما العالم مَنْ عمل بما علم ، فوافق عملُه علمه ، وسيكونُ أقوامٌ يحملون العلم لا يجاوز تراقيَهم ، يخالف علمَهم عملُهم ، وتخالف سريرتُهم علانيتهم ، يجلسون حِلَقاً حِلَقاً ، فيباهي بعضهم بعضاً ، حتَّى إنَّ الرَّجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره ، ويدعه ، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عزَّ وجلَّ)[1].

* روى التِّرمذيُّ عن أبي هريرة[2] قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخرج في آخر الزَّمان رجالٌ يختلون الدُّنيا بالدِّين ، يلبسون للنَّاس جلود الضَّأن من اللِّين ، ألسنتُهم أحلىٰ من السُّكر ، وقلوبُهم قلوب الذِّئاب ، يقول الله تعالى: أبي يغترُّون؟ أم عَلَيَّ يجترئون؟ فبي حلفتُ: لأبعثنَّ على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران».

إنَّ الله أكرم هذه الأمَّة على امتداد عصورها بعلماء عاملين صادقين ، صدَّاعين بالحقِّ ، لا يخافون في الله لومة لائمٍ... وهؤلاء هم ورثة الأنبياء ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

وهناك إلى جانبهم علماءُ سوءٍ ، حصَّلوا العلم ، ولم يعملوا به ، وجانبوا التَّقوىٰ في تصرُّفاتهم وإن كانوا يتظاهرون بالورع ، يبتغون بعملهم الدُّنيا وعرضها الزَّائل ، ويخادعون أنفسهم وما يشعرون. إنَّ علينا أن نحذِّر علماء

---

(١) أورده ابن رجبٍ في رسالته في شرح هذا الحديث.

(٢) أورد القرطبيُّ في تفسيره حديثاً مشابهاً ، عزاه للتِّرمذيِّ عن أبي الدَّرداء يرفعه: قل للذين يتفقَّهون لغير الدِّين ، ويتعلَّمون لغير العمل ، ويطلبون الدُّنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للنَّاس مسوك الكباش ، وقلوبهم... أمَّا الحديث المذكور عن أبي هريرة ، فانظره في التِّرمذيِّ ٣/ ٢٨٧ برقم ٢٤٠٤ ، وسنده ضعيفٌ.

السُّوء هؤلاء ، وأن نحذِّر منهم ، لأنَّ العلم كما رَوَيْنا قبل قليل عن الإمام مالكٍ هو دينٌ ، فلا ينبغي أن نتلقَّى دين الله مِنْ فاسقٍ.

يقول ابن تيميَّة: [كان السَّلف يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ][1].

قال الإمام أبو حامدٍ الغزاليُّ: [... فإن عجز عن الاجتهاد ، والفكر بنفسه ، فيستضيئُ بنور علماء الدِّين ، وليفرَّ من العلماء المضلِّين المقبلين على الدُّنيا فراره من الشَّيطان بل أشدَّ ، فقد أوحىٰ الله إلى داود عليه السَّلام: لا تسأل عنِّي عالماً أسكره حبُّ الدُّنيا ، فيقطعك عن محبَّتي ، أولئك قطَّاع الطَّريق على عبادي. فالقلوب المُظلمة بحبِّ الدُّنيا ، وشدَّة الشَّره ، والتَّكالب عليها محجوبةٌ عن نور الله تعالى ، فإنَّ مستضاء أنوار القلوب حضرة الرُّبوبية ، فكيف يستضيئ بها من استدبرها ، وأقبل على عدوِّها؟ وعشق بغيضها ، ومقيتها؟ وهي شهواتُ الدُّنيا][2].

وقال ابن القيِّم:

[علماء السُّوء جلسوا على باب الجنَّة ، يدعون إليها النَّاس بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النَّار بأفعالهم ، فكلَّما قالت أقوالهم للنَّاس: هلمُّوا! قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقَّاً ؛ كانوا أوَّل المستجيبين له ، فهم في الصُّورة أدلاء ، وفي الحقيقة: قطَّاعُ الطُّرق][3].

وقال مصطفىٰ صادق الرَّافعي:

[لو نافق العالِم الدِّيني ؛ لكان كلُّ منافق أشرفَ منه ، فلطخةٌ في الثَّوب الأبيض ليست كلطخةٍ في الثَّوب الأسود][4].

وقال مصطفىٰ صادق الرَّافعيُّ:

---

(١) فتاوى ابن تيميَّة: ١١/ ٢٧.

(٢) الإحياء: ٤/ ٣٨٨.

(٣) الفوائد: ٨٠ ط أحمد راتب عرموش.

(٤) وحي القلم: ٣/ ٥٩ من مقالة «أمراء للبيع».

[أتدري يا ولدي! ما الفرق بين علماء الحقِّ وعلماء السُّوء ، وكلُّهم آخذٌ من نورٍ واحدٍ لا يختلف؟

أولئك في أخلاقهم كاللوح من البِلَّور: يُظهر النُّورُ نَفْسَه فيه ، ويظهر حقيقته البِلَّوريَّة.

وهؤلاء بأخلاقهم كاللَّوح مِنَ الخشب: يُظهر النُّورُ حقيقته الخشبيَّة لا غير][1].

إنَّ الحرص على أن يكون المرء مقدَّماً ، معظَّماً ، شريفاً ، مكرَّماً ، يتبوَّأ المنصب السَّامي ، والزَّعامة المستعلية ، أمرٌ ذمَّه الشَّرع أعظم الذَّمِّ ، وعدَّه مفسداً للدِّين أيَّ إفسادٍ ، فإذا اتَّخذ لهذا الأمر المذموم العلم ، والزُّهد وسيلةً ؛ كان ذلك أقبح ؛ لما فيه من التَّدليس ، والتَّدجيل ، والخداع ، والرِّياء.

وقد ذكرت: أنَّ طلب العلم الشَّرعيِّ ، وتحصيله لهذا الغرض الدُّنيويِّ أمرٌ شنيعٌ قبيحٌ ، وأشنع منه ، وأقبح أن يلبس المرء لبوس العلماء ؛ وهو جاهلٌ ، يُفتي في دين الله من غير علمٍ[2] ، فيحلُّ ، ويحرِّم ، وهو لا يعرف مِنْ أمور الدِّين شيئاً ، وقد ينطلي أمره على الجهلة من العوامِّ ، ولا سيَّما إنْ زُوِّدَ بلقبٍ من الألقاب الَّتي تغرُّ النَّاس اليوم ، ويُؤسفني أنْ أقرِّرَ: أنَّ هذا قائمٌ في واقعنا ، وسيكثر في آخر الزَّمان كما أخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ.

وكلمةٌ أقولها لطلبة العلم: أيُّها الإخوة ، والأبناء! إنَّ عليكم إن أردتم النَّجاة لأنفسكم يوم القيامة ، والعزَّة لأمتكم في الحياة الدُّنيا ، والخلاص من هذا الواقع المؤلم الَّذي تحياه ، إنَّ عليكم إن أردتم ذلك أن تُخلِصوا نياتِكم لله ، وأن تترفَّعوا عن طلب المال ، والتَّنافس على أعراض الدُّنيا ، وعن طلب المنزلة بالعلم ، وإظهار التَّقوىٰ ، والورع ، فإنَّ ذلك من الرِّياء المحبط للعمل ، ومن مخادعة الله عزَّ وجلَّ ، قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: ٩]. ومِنْ صدِّ النَّاس عن سبيل الله.

---

(١) وحي القلم: ٣/ ٦٠.

(٢) انظر في هذا الموضوع كتاب «تحذير الخواص» بتحقيقنا.

إنَّ عليكم يا أيُّها الإخوة ، والأبناء من طلبة العلم الشَّرعي! أن تحذروا من وساوس الشَّيطان ، فإنَّ له مداخل خفيَّةً ، ومسالك خطيرةً ، وإنَّه ليجري من ابن آدم مجرىٰ الدَّم. وأن تحذروا أيضاً من هوى النَّفس ، فإنَّ النَّفس لأمارةٌ بالسُّوء. . . وإنَّ عليكم أن تؤثروا ما عند الله ، فإنَّ مَنْ أخلص لله ، وصدَق معه ، ونصح لعباده ؛ أعانه ، وسدَّد خطاه ، ولم يضيِّعه أبداً.

أيها الإخوة ، والأبناء! إنَّ في المسلمين خيراً كبيراً. . . وقد ابتُلوا بعددٍ من علماء السُّوء أفقدوا سوادهم[1] الثِّقة بِمَنْ يظهر بمظهر العلماء. فاتَّقوا الله ، واجتهدوا ، وأخلِصوا عملكم لله ، والله يمدُّكم ، ويحفظكم ، ويرعاكم.

الزُّهد والعبادة:

ومن الأمور الدِّينيَّة ؛ الَّتي قد تُتَّخَذُ سلَّماً للوصول إلى المنزلة السَّامية الزُّهد ، والعبادة ، وقد رغَّبنا رسول الله ﷺ في الزُّهد في الدُّنيا ، وندبنا إلى الاستكثار من النَّوافل ، والطَّاعات ، إنَّ الزُّهد في الدُّنيا وسيلةُ النَّجاح ، وهو طريق الجنَّة ، وبه يبلغ المرء رضوان الله ، وقد ألَّف العلماء فيه كتباً خاصَّةً[2] ، وهو كذلك يجعل صاحبه محبوباً من قِبَلِ النَّاس.

عن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ ؛ قال:

جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقال: يا رسول الله! دُلَّني على عملٍ إذا عملتُه ؛ أحبَّني اللهُ ، وأحبَّني النَّاس. فقال ﷺ: «ازهد في الدُّنيا ؛ يحبَّك الله ، وازهد فيما عند النَّاس ؛ يحبَّك النَّاس»[3].

ورغَّبنا رسول الله ﷺ أعظم التَّرغيب في الاستكثار من النَّوافل.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «سوادهم»: سوادُ الناس: عامَّتُهم.

(٢) مثل الزُّهد لأحمد ، وابن المبارك ، وغيرهما ، وانظر الرِّسالة المستطرفة.

(٣) ابن ماجه ٢/ ١٣٧٤ برقم ٤١٠٢ ، والحاكم ٤/ ٣١٣ ، وانظر الدُّرر برقم ٧٨ ، ومختصر المقاصد ٨٩ ، وكلاهما بتحقيقنا ، والحلية لأبي نعيم ٣/ ٢٥٣.

«إنَّ الله تعالى قال: «مَنْ عادى لي ولياً؛ فقد آذنتُه بالحرب، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه؛ كنتُ سمعه الَّذي يسمع به، وبصرَه الَّذي يبصر به...» رواه البخاريُّ[1].

وبما أنَّ المجتمعات الإسلاميَّة قائمةٌ على أساس الدِّين في قيمها، وتصوُّراتها، وعادات أهلها؛ الَّذين يحبُّون الصَّالحين، والزُّهاد، ويثنون عليهم، ويثقون بهم.

ولذلك فقد يتظاهر دجَّالٌ بالزُّهد، وبكثرة العبادة، ويُظهر الفقر، والتعفُّف، ويلبسُ الثِّياب المرقَّعة، ويعلن أنَّه صائم، ويلازم المسجد، وإذا كلَّمه أحدٌ تشاغل عنه بالتَّسبيح، والذِّكر... وما يزال يفعل ذلك حتى يتمكَّن حبُّه من قلوب النَّاس، فيتخذ منهم أتباعاً يطيعونه، ويلتزمون نَهْجَهُ، ولا يعصونه في أمرٍ، ويضعون تحت تصرُّفه أموالهم، وأولادهم، وجهودهم.. وعندئذٍ يكون قد وصل إلى الزَّعامة؛ الَّتي يطلب، وقد تنمو هذه الزَّعامة، وتمتدُّ.

ونقرأ في كتب التَّاريخ في سير عددٍ من زعماء الضَّلالة: أنَّهم كانوا على درجة عاليةٍ من الزُّهد، والعبادة، والتَّعفُّف. نذكر منهم قرمط صاحب الدَّعوة الهدَّامة:

* قال ابن الجوزيِّ: [قال أهل السِّير: كان ذلك الرَّجل الدَّاعي ـ وهو قرمط ـ من ناحية خوزستان، وكان يُظهر الزُّهد، والتَّقشُّف، ويسفُّ الخوص، ويأكل من كسبه، ويحفظ للقوم ما صرموا من نخلهم في حظيرةٍ، ويصلِّي أكثر نهاره، ويصوم، ويأخذ عند إفطاره من البقَّال رطلاً من التَّمر، فيفطر عليه، ويجمع نواه، فيدفعه إلى البقَّال ثُمَّ يحاسبه على ما أخذ منه، ويحطُّ من ذلك ثمن النَّوى، فسمع التُّجار الَّذين صرموا نخلهم، فوثبوا عليه،

(١) البخاريُّ ٦٥٠٢.

وضربوه ، وقالوا: لم ترض بأن أكلت التَّمر ؛ حتى بعت النَّوى ، فأخبرهم البقَّال في الحال ، فندموا على ضربه ، وسألوه الإحلال (أي: أن يجعلهم في حل) فازداد بذلك نبلاً عند أهل القرية ، وكان إذا قعد إليه إنسانٌ ذاكره أمر الدِّين ، وزهده في الدُّنيا . . .][1].

ثم وضع عنهم الصَّلاة ، وألحد في الدِّين ، وقام بحركته التَّخريبيَّة المعروفة.

ونذكر منهم الحلاَّج ، وهو الحسين بن منصور الَّذي كان يدعو إلى الحلول ، والكفر ، والعياذ بالله تعالى ، فقد ذكر ابن كثيرٍ[2]: [أنَّه جاور بمكَّة في وسط المسجد في البرد ، والحرِّ ، مكث على ذلك سنواتٍ ، وكان يصابر نفسه ، ويجاهدها ، ولا يجلس إلا تحت السَّماء في وسط المسجد الحرام ، ولا يأكل إلا بعض قرصٍ ، ويشرب قليلاً من الماء معه وقت الفطور مدَّة سنةٍ كاملةٍ ، وكان يجلس على صخرةٍ في شدَّة الحرِّ في جبل أبي قبيس ، ثمَّ دعا إلى الحلول ، والكفر.

وروىٰ الخطيب البغداديُّ : أنَّ الحلاَّج بعث رجلاً من خاصَّة أصحابه ، وأمره أن يذهب بين يديه إلى بلدٍ من بلاد الجبل ، وأن يظهر لهم العبادة ، والصَّلاح ، والزُّهد ، فإذا رآهم قد أقبلوا عليه ، وأحبُّوه ، واعتقدوه ؛ أظهر لهم أنَّه عمي ، ثمَّ يُظهر لهم بعد أيَّام أنَّه قد تكسَّح ، فإذا سعوا في مداواته ؛ قال لهم: إنه لا ينفعني شيءٌ ممَّا تفعلون ، ثمَّ يُظهر لهم بعد أيَّامٍ أنَّه قد رأىٰ رسول الله ﷺ في المنام ؛ وهو يقول: إنَّ شفاءك لا يكون إلا علىٰ يد القطب الَّذي سيقدَم عليك في اليوم الفلانيِّ ، وصفته كذا ، وكذا . وقال الحلاَّج: إنِّي سأقدَم عليك في ذلك الوقت ، وجرىٰ الأمر كما رتَّب ، وقام معافىٰ ، فاغترَّ أهل البلد بالحلاَّج ، وتلميذه][3].

وفي العصر الحاضر عددٌ من القصص عن أفرادٍ من اليهود ، والنَّصارىٰ ،

---

(١) انظر القرامطة لابن الجوزيِّ بتحقيقنا ٣٩.

(٢) انظر البداية والنِّهاية ١١/ ١٣٢.

(٣) البداية والنِّهاية ١١/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

وملاحدة المسلمين ، وفسقتهم ، ودجَّاليهم تظاهروا بالإسلام ، والتَّقوىٰ ، والزُّهد ، والورع ، وبالغوا في العبادة من صلاةٍ ، وصيامٍ ، وتسبيحٍ ، وتهليلٍ ، حتَّى وثق النَّاس بهم ، وائتمنوهم على أموالهم ، وأولادهم ، واتَّبعوهم ، فكان بعضهم دعاة سوءٍ ، يدعون النَّاس ، ويضلُّونهم بالانحراف والكفر ، وكان بعضهم عملاء للاستعمار ، وأعواناً للكفَّار ، وكان بعضهم سارقين مجرمين .

* أذكر منهم مستشرقاً هولانديَّاً ، قرأت قصَّة حياته ، فقد جاء إلى مكَّة ، وأقام فيها في سوق اللَّيل سنين متعدِّدةً ، متظاهراً بالإسلام ، ثمَّ رجع بعد حينٍ إلى بلاده بعد أن عرف من أحوال المسلمين ، وعاداتهم ، ومستواهم ما لم يكن يعرفه كثيرٌ من المسلمين ، والكفَّار ، وكتب في ذلك كتاباً أعلن فيه إِحْكامه لتلك الحيلة ، وكيف استطاع أن يخدع من اتَّصل بهم من المسلمين .

* وسمعت أيضاً : أنَّ رجلاً من الكفَّار وفَد على مدينةٍ من بلاد المسلمين ، وكان يتقن العربيَّة ، وتظاهر بأنَّه يطلب العلم الشَّرعيَّ ، واستطاع أن يأخذ عدداً من الإجازات من عددٍ من علماء تلك المدينة ، وكان يقرأ القرآن ، ويكثر من الصَّلاة ، ويمتنع من الطَّعام ، والشَّراب في النَّهار مدَّعياً : أنَّه صائم ، فإذا أفطر أكل شيئاً يسيراً ، ولا يقبل عطايا النَّاس إلا نادراً ، حتَّى وثِق النَّاس به ، وأحبُّوه ، وتفانوا في خدمته ، ثمَّ تبيَّن بعد حين : أنَّه نصرانيٌّ ضابطٌ في جيش دولته المستعمرة .

* وأذكر منهم على سبيل المثال الشَّيخ أحمد التِّيجاني ؛ الَّذي كتب قصَّته محبُّ الدِّين الخطيب ، وكشف عن دوره في خدمة أغراض فرنسا في الغرب .

وكان ذلك في مقالةٍ كتبها محبُّ الدِّين افتتاحيةً لمجلَّة الأزهر جزء المحرَّم ١٣٧٧ وقد أفردها ابنه قصي الخطيب ، ونشرها رسالةً مستقلَّةً بعنوان :

«من الإسلام إلى الإيمان ـ حقائق تاريخيَّة بمناسبة الصِّراع مع الاستعمار في العالم الإسلاميِّ ـ عبرة وذكرىٰ من تاريخ الطَّريقة التِّيجانيَّة» .

* وأذكر قصَّة مشوِّقة حافلةً بالمفاجآت ، بطلها شابٌّ يتظاهر أنَّ أذنيَّ كبيراً

لحق به بسبب دينه ، وهو شعلةٌ من الذَّكاء ، والمكر ، إذا تحدَّث أمام إنسانٍ متديِّنٍ ، أبدىٰ حماسةً ملتهبةً لحال الدَّعوةِ الإسلاميَّة ، وأعلن حُرْقةً بالغةً ، وألماً بسبب تقصير الدُّعاة . . وذكر صفحة ماضيه المُترعة بالمضايقة من أجل اتِّجاهه ، وما يزال يدور ، ويحور حتَّى يستحوذ على إعجاب سامعه ، وامتلاك ثقته ، وقد يتفانىٰ في خدمة مَنْ يلقىٰ . . . حتَّى إذا اطمأنَّ إلى تمكُّنه من قلب صاحبه ؛ شرع يزيِّن له الدُّخول في مشروعٍ اقتصاديٍّ مضمون الرِّبح . . . فيسارع المخدوع إلى الموافقة ، ويعطيه كلَّ ما جمع . . . وبعد ذلك يتبيَّن له : أنَّه كاذبٌ محتالٌ . . . وأنَّه يتَّخذ الدِّين فخّاً ؛ ليوقع فيه السُّذَّج المُغفَّلين .

* وأذكر منهم قصَّة دجالٍ جاء إلى بلدٍ أوربيٍّ يَكثُر فيه العمَّال المسلمون ، جاء بمظهر إسلاميٍّ ، يلبَس ثوباً قصيراً ، وله لحيةٌ طويلةٌ ، وكان يتظاهر بالإكثار من النَّوافل من الصَّلاة ، والصِّيام . . حتى إذا وثق به العمَّال هناك ؛ زيَّن لهم أن يشاركوه في تجارةٍ زعم لهم أنَّهم سيربحون فيها الأموال الطَّائلة . . وأخذ منهم الأموال . . . ثمَّ اختفىٰ ، وذهبت الأموال .

وأذكر منهم قصَّة صديقٍ يعمل موظَّفاً كبيراً في إحدىٰ الوزارات ، لفت نظره منظرُ حارسٍ كان يحرس مستودعاً قريباً من مركز عمله . . . لا ينفكُّ هذا الحارس عن صلاةٍ ، وذكرٍ ، وتلاوةٍ ، وعبادةٍ . . فاستدعاه ، وكلَّمه ، فأعجب بمنطقه ، وأسلوبه ، وتوثَّقت الصِّلات بينهما . . حتَّى عرض الحارس عليه المشاركة في مشروعٍ ، فوافق ، وحضَّ أصدقاءه ، وأقرباءه على المساهمة فيه . . . وأخذ الحارسُ الأموال ، وأكلَها . . . ثمَّ تكشَّف عن رجلٍ أبعد ما يكون عن الدِّين .

إنَّ هؤلاء الَّذين يسعون إلى الحصول على المال عن طريق إظهار التديُّن ، والزُّهد ، وهم كاذبون محتالون . . . إنَّهم من أشدِّ النَّاس إساءةً للدِّين .

إنَّهم ينفِّرون من الدِّين ، والاستقامة . وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون !

* * *